# الأمير عبد القادر: بطولة وشعر!

بقلم احمد الخطيب

لقد تريثت قليلا قبل البدء بدراسة مقتضبة عن الامير عبد القادر ، ذلك الرجل الذي لا يكاد يعرف عنه الناس اكثر مما اورده الكتاب الفرنسيون في ابحاثهم التاريخية عن الاحتلال الفرنسي للجزائر . فالامير عبد القادر في نظرهم ليس سوى قائد شجاع ، قاوم القوات الفرنسية بضع سنوات ثم لم يلبث ان انهار ، شأنه في ذلك شأن كثير من القادة الذين استسلموا استسلاما كاملا للزحف الفرنسي في اوروبا وافريقيا .

ويجحف الكتاب والمؤلفون الاوروبيون ، وعلى الاخص الفرنسيون منهم ، بحق عبد القادر اجحافا كبيرا اذ يوجزون حياته في اسطر يمرون بها دون اكتراث . وليس من شك انهم متاثرون ، بل منقادون ـ بشعور او بلا شعور ـ في ابحاثهم لتوجيهات الحكومات المتعاقبة على الحكم في فرنسا منذ سنة ١٨٣٠ حتى يومنا هذا .

ولن نكون منصفين اذا شمل اتهامنا جميع الكتاب الفرنسيين ، فالواقع انه قد ظهر بعض الكتاب المعاصرين الذين يتحلون بروح رياضية سليمة في ابحاثهم التاريخية والسياسية امثال « Ch. A. Julien الذي اخرج عدة كتب عن الجزائر وشمالي افريقيا ككتابي Histoire de l'Algérie, Histoire de l'Afrique du Nord و

وعلى الرغم من الضوء الذي حاول « جوليان » تسليطه على الامير عبد القادر ، فقد حالت الستارة التي اسدلها الاستعمار على هذه الشخصية ـ الى حد ما ـ دون تسرب الضوء الى اعماق حياة الامير البطولية والادبية والسياسية .

ولقد وفق نوعا ما ـ احد الكتاب الجزائريين ، الذين ابدعوا باللغة الفرنسية الى اخراج كتاب عن الامير اطلق عليه اسم « فارس الايمان » Chevalier de la Foi وفيه يستعيد مالك بن نبي للامير بعض الانصاف التاريخي في البطولات العسكرية والادبية والسياسية .

وحتى الان لم تظهر مؤلفات باللغة العربية تبحث في حياة الامير عبد القادر بحثا دقيقا عميقا يتناسب ونبوغه الفكري. ولعل القارىء العربي لا يعرف عن الامير عبد القادر اكثر مما سمح الاستعمار بالتعريف عنه وخاصة في المجال الادبي . فقليل هم الذين يعرفون عن الامير انه شاعر وناثر ، وانه سما في الشعر كما ابدع في النثر . وان من يريد التعرض للامير في بحث ونقد يضطر الى تعبئة المؤلفات الضخمة ، وهذا ما حداني الى التريث قليلا قبل البدء بدراسة مقتضبة عن حياة الامير الادبية . وبالاحرى تعريف الامير الى القراء العرب

## نشأة الامير

ولد الامير في دوار (١) القيطنة الذي يبعد بضعة اميال عن مدينة معسكر عام ١٢٢٢ هـ ١٨٠٧ م . وشب في بيئة طبيعية وصفها بقوله :

ما في البداوة من عيب تذم به ... الا المروءة والاحسان بالبدر
وصحة الجسم فيها غير خافية ... والعيب والداء مقصور على الحضر
من لم يمت عندنا بالطعن عاش مدى ... فنحن اطول خلق الله في العمر

اما نشأته الاجتماعية فقد كانت نشأة مترفة غير مسرفة ، شأنه في ذلك شأن اولاد الامراء وكبار القوم ، غير ان والد الامير كان من الهيبة والوقار ما جعل الوعي والتهذيب يشبان مع ابنه حتى عقد له ـ دون اخوته ـ لواء الامارة والجهاد .

## ثقافته

تلقى الامير علومه الاولية على يد والده الشيخ محي الدين الذي كان يعد من العلماء الاجلة في المغرب العربي ، الى جانب ما كان يتمتع به من زعامة دينية وسياسية في عموم الجزائر وعلى الاخص في مقاطعة وهران .

ولم يلبث الامير ان سافر الى مدينة وهران حيث تابع تعليمه العالي في احدى كلياتها . وخلال زيارته الاولى للشرق العربي مع والده اخذ العلم عن الامام ابي احمد عبد الرحمان الكزبري والامام ضياء الدين النقشبندي السهرودي (١)

وعاد الامير الى مسقط راسه في الجزائر حيث شرع يؤلف كتبا في العلم والفلسفة ، الى جانب اقراضه الشعر . ومن هذه المؤلفات كتاب « المواقف في علم الحقيقة » الذي تبلورت فيه عبقرية الامير العلمية والفلسفية . وانه لمن دواعي الاسف المؤلم ان يفقد هذا الكتاب مع غيره من الكتب التي هي بحق عصارة افكاره في شرخ شبابه ، والتي احرقها الفرنسيون ومزقوا من الكتب الثمينة ، والمخطوطات الاثرية ، حين هاجموا مكتبة الامير في قصره ـ الذي كان خاليا انذاك وقد وصف الجنرال « آزان » التاثير العميق الذي كان يحز في نفس الامير من جراء فعل الفرنسيين الهمج بقوله : « كان الامير عبد القادر يتنزى من الالم وهو يتبع خطوات الفرنسيين نحو المدية . بالاوراق المتناثرة في كتبه الثمينة على طول الطريق الطويل ، فقد كانت هذه المكتبة ثمره تعب اجيال في التمحيص والجمع والنسخ » .

لست ابغي في هذا المجال التعليق على اعمال الفرنسيين، ولكنني ادع القارىء العربي يتصور معي قوما مسلحين يسيرون في طريق طويل منهم الراكب والراجل ، يمسكون اوراقا ومؤلفات يمعنون فيها تمزيقا وتفتيتا وهم يقهقهون قهقهة المنتصر على هذه الكتب ، تماما كما فعل هولاكو التتري بمكتبة بغداد ، بينما كان يتبعهم الى الخلف رجل جبار لكنه وقور ، يرى عصارة افكاره واتعاب يراعه في الجمع والنسخ تدوسها ارجل من بلاد روسو وموليير .

(١) كلمة يستعملها الجزائريون وعلى الاخص سكان القسم الغربي من الجزائر للدلالة على موطن قبيلة من القبائل في الريف ، وهي بمعنى « المشتى » في القسم الشرقي من الجزائر

(١) ( الثورة الجزائرية ) للمؤلف

ومما لا يقبل الجدل ان فقدان مكتبة الامير عبد القادر على ايدي وحوش « غالية » Lagaute قد سبب خسارة لا تعوض في المكتبة العربية ، اذ انها كانت تحتوي على مخطوطات اثرية ذات قيمة ، لم تساعدها ظروف الجزائر آنذاك على البروز الى عالم الطباعة والنشر .

## شعره

ما زال شعر الامير غير مجموع ومعتنى به اعتناء يستحقه ، فهو مبعثر هنا وهناك ، بين اهل الامير وبعض المكتبات الخصوصيةفي الجزائر. واذكر انني رأيت عند اقارب الامير في مدينة معسكر بعض القصائد المخطوطة،كما اطلعت احد العلماء في مدينة مستغانم ، وقد تعدى هذا العالم التسعين من عمره ، على كتاب مخطوط بيد الامير عبد القادر نفسه ، وهو يحفظه بكل تبجيل في مكتبته الخاصة . وانا اذ اضع بعض اللوم على احفاد الامير الذين لم يتموا ما بداه الامير محمد الابن الاكبر للامير عبد القادر ، وذلك حين جمع بعض مآثر الامير في كتابه « تحفة الزائر في تاريخ الامير عبد القادر » (١) والذي يعد المصدر الاول لقصائد الامير ، فانني اضع بقية اللوم على ادباء الجزائر الذين لم يحاولوا جمع مآثر الامير كاملة ، واخراجها الى حيز الطباعة والنشر حيث يسدون جزءا من الثغرة التي تركها حريق مكتبة الامير .

وشعر الامير يعد من الشعر التبعي الذي احتفظ بقاعدته القديمة في النظم والايقاع ، فهو يبدأ بالوصف او الغزل لكي يتوصل الى بغيته

وينقسم هذا الشعر من حيث زمن اقراضه الى اربعة اقسام :

اولا ـ شعر ما قبل الحرب التحريرية ، وهذا الشعر مفقود تماما اذ التهمته كارثة الحريق .

ثانيا ـ شعر الحرب التحريرية وفيه تفجرت عبقرية الامير عن شعر قوي متين من قصائد قصصية او حماسية يصف فيها مواقعه مع العدو بقول بليغ ترتجع فيه معاني البطولة العربية . وقد جاء في قصيدة له خلال معركة خنق النطاح الاولى قرب وهران :

ونحن سقينا البيض في كل معرك دماء العدى والسمر اسعرتالجوى
الم تر في خنق النطاح نطاحنا غداة التقينا كم شجاع لهم لوى
وكم هامة ذاك النهار قددتها بحد حسامي والقنا طعنه شوى

وفي هذه المعركة التي انتصر فيها الامير على اعدائه يصف كيف حمل اخاه الذي استشهد بعد طول كفاح:

ومن بينهم حملته حين قضى وكم رمية كالنجم من افقه هوى

ثم يتدرج فيصف كيف قتل جواده من تحته وبقي هو على الارض بين جمع من العدو يحارب وحده حتى أنجده رجاله .

بيوم قضى تحتي جواد برمية وبي احدقوا لولا أولو البأسوالقوى

الى ان يبين لنا كيف حاول احدفرسان العدو طعنه بحربة فخلا منها الامير بخفة ،وشد عليها بابطه ثم هوى على الفارس بسيفه فارداه :

ولما بدا قرني بيمناه حربة وكفي بها نار الكبش قد شوى
فايقن اني قابض الروح فانكفا يولي فوافاه حسامي مذ هوى

وللامير في شعره خلال الحرب التحريرية قصائد غنائية في الفخر والوصف والتصوف ، ومن امثلة شعره في الفخر قوله :

لنا في كل مكرمة مجال ومن فوق السماك لنا رجال
ركبنا للمكارم كل هول وخضنا ابحرا ولها زجال
اذا عنها توانى الغير عجزا فنحن الراحلون لها عجال
لنا الفخر العميم بكل عصر ومصر هل بهذا ما يقال
رفعنا ثوبنا عن كل لؤم فاقوالي تصدقها الفعال
ورثنا سؤددا للعرب يبقى وما تبقى السماء ولا الجبال

. . . . . .

سلوا عنا الفرانس يخبرنكم ويصدق اذ حكت منها المقال
فكم لي فيهم من يوم حرب به افتخر الزمان ولا يزال

ويقول كذلك في قصيدة اخرى يجيب بها على زوجته ويبرز فيها بطولته الفذة

الم تعلمي يا ربة الخدر انني اجلي هموم القوم في يوم تجوالي
واغشى مضيق الموت لا متهيبا واحمي نساء الحي في يوم تهوال
يثقن النسا بي حيث ما كنت حاضرا ولا تثقن في زوجها ذات خلخال

. . . . . .

ومن عادة السادات بالجيش تحتمي وبي يحتمي جيشي وتحرس ابطالي
وبي تتقي يوم الطعان فوارس تخالينهم في الحرب امثال اشبال
اذا تشتكي خيلي الجراح تحمحما اقول لها صبرا كصبري واجمالي
وابذل يوم الروع نفسا كريمة على انها في السلم اغلا من الغالي

. . . . . .

وعني سلي جنس الفرنسيس تعلمي بان مناياهم بسيفي وعسالي
سلي البيد عني والمفاوز والربى وسهلا وحزما كم طويت بترحالي

. . . . . .

فلا تهزئي بي واعلمي انني الذي اهاب ولو اصبحت تحت الثرى بالي

والامير صادق في كل ما قاله ، بل لتكاد وقائع تاريخه تفوق قصائد شعره بطولة ونضالا فهو من غير الطينة التي جبل منها بعض الشعراء الذين يتصورون انفسهم ابطال نزال وهم لا يعرفون عن المعارك والحروب اكثر مما تحدث به الرواة .

وللغزل في شعر الامير مكان . وقد تعجب لقوله :

وقد رفعت عني الازار فلج به وبرد فؤادا من زلال نواها
وذا روض خديها تفتق نوره فلا ترض من زاهي الرياض عداها

انها تلمسان الجميلة التي استردها الامير من العدو ودخلها ظافرا معتزا

فكنت لها بعلا وكانت حليلتي وعرسي وملكي ناشرا للواها
ووشحتها ثوبا من العز رافلا فقامت باعجاب تجر رداها
ونادت اعبد القادر المنقذ الذي اغثت اناسا من بحار هواها
لانك اعطيت المفاتيح عنوة فزدني ايا عز الجزائر جاها

والامير كسلطان وقائد فانه دائب الحرص على مصلحة شعبه ، كما انه محبب الى قلب جيشه ، ذلك الجيش الذي قارع اكبر جيش منظم ومجهز عرفه القرن التاسع عشر ، وتمكن من الصمود سبعة عشر عاما كاملة في وجهه بفضل قيادة الامير الحازمه وسياسته الحكيمة .

وكان الامير يتبع نظاما فريدا في استشارة حماس رجاله كما كان يبثهم بصورة دائمة اشواقه واحساساته نحوهم ، خاصة اولئك الذين يرابطون في مناطق نائية عنه ، في كثير من قصائده .

(١) طباعة الاسكندرية عام ١٩٠٣

جفني لقد الف السهاد لبينكم فلذا غدا طيب المنام بمعزل
كم ليلة قد بتها متحسرا كمبيت ارمد في شتا وتململ
سهران ذو حزن تطاول ليله فمتى ارى ليلي بوصلي ينجلي
. . . . . .
حاولت نفسي الصبر عنهم قيل لي مه . ذا مجال ويك. عنه تحول
كيف التصبر عنهم وهم هم ارباب عهدي بالعقود الكمل
تفديهم نفسي وتفدي ارضهم ازكى المنازل يا لها من منزل

ويصف الامير رجال الجيش الجزائري بقوله :

الصادقون الصابرون لدى الوغى الحاملون لكل ما لم يحمل
ان غيرهم لذ اللذائذ مسرفا هم يبتغون قراع كتب الجحفل
. . . . . .
كم ادلجوا كم ازعجوا كم اسرجوا بتسارع للموت لا بتمهل
كم شردوا كم بددوا وتعودوا تشتيت كل كتيبة بالصيقل
يوم الوغى بوم السرة عندهم عند الصباح له مشوا بتمهل
فدماؤهم وسيوفهم مسفوحة ممسوحة بثياب كل مجندل
. . . . . .
ما الموت بالبيض الرقاق نقيصة والنقص عندهم بموت الهمل

يا لها من كلمات نارية تنطلق من فم ناري فتهز النفوس النخيلة وتنفجر بركانا يطيح بالطغاة المستعمرين .

ورجال الامير هم احق واجدر بوصف كهذا ، فبعددهم الضئيل الذي لم يتجاوز خمسة عشر الف جندي تمكنوا من قهر جيش العدو الذي تجاوز عدد افراده في بعض الاحيان مائة وخمسين الف محارب . وكانوا يرغمونه باستمرار على طلب الهدف وابرام المعاهدات التي كثيرا ما تضمنت اعتراف فرنسا بالكيان العربي الجزائري المستقل .

ولكن اتباع العدو لسياسة وحشية لا انسانية فيها ، كحرق الغابات والمدن والقرى وتخريب المزارع والبساتين وردم العيون والابار ، هي التي جعلته يكسب الجولة الاولى . وليس النصر النهائي .

تنتهي الحروب التحريرية الاولى باستسلام الامير . بعد ان اصبح الاستمرار في القتال عبارة عن عملية انتحار . وينفى الامير الى«امبواز» في فرنسا بعد ان يخل العدو بشروط الاستسلام . وهناك يبدأ :

القسم الثالث ـ او شعر المنفى الذي تظهر فيه قصائد الامير التصوفية والتشوقية وقد اشتد عليه الاسر يوما فاستغاث بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم .

لم ادر شيئا قبل معرفة الهوى حبي لكم ما كان قط تكلفا
ما بالهم يا صاح لم يتذكروا صبا كئيبا في المحبة مدنفا
ما قيل ذاك اسيرنا وقتيلنا بين العوادي والاعادي مثقفا
قلبي الاسير لديكم والجسم في اسر العداة معذبا ومكتفا

وخلال مدة نفيه انشد الامير قصيدة عصماء، فاخر فيها بين البدو والحضر ، وقد جاء في مطلعها :

يا عاذرا لامرىء قد هام في الحضر وعاذلا لمحب البدو والقفر
لا تذممن بيوتا خف محملها وتمدحن بيوت الطين والحجر

الى ان ينتصر للبدو بقوله :

قال الالى قد مضوا قولا يصدقه نقل وعقل وما للحق من غير
الحسن يظهر في بيتين رونقه بيت من الشعر او بيت من الشعر

ويطلق سراح الامير بعد انيفصل عن اخوته ، ويسمح له بالتوجه الى الشرق العربي حيث يبدأ : القسم الرابع ـ او شعر ما بعد المنفى ، وفيه ينظم الامير قصائد في التشوق الى اهله ووطنه .

وخلال زيارته للاستانة عام ١٨٥٣ انشد قصيدة في حضرة السلطان الغازي عبد الحميد خان وفيها يذكره بالعرب الجزائريين وما يلاقونه من اضطهاد واستعباد آملا من وراء ذلك الى دفع السلطان على التدخل لتحرير الجزائر .

فالمسلمون بارض العرب شاخصة ابصارهم نحوه يرجون اقبالا
كم ساهر يرتجي نوما بسطوته وحائر يرتجي للحزن تسهالا

ولكن اين للاتراك ان يسمعوا وهم اهل الداء. فلولاهم لما حل بالعرب ما حل . ولما ادخلوا لقمة سائغة في فم العدو

ويعود الامير الى دمشق ،موئله الاخير، قانطا من الحكام الخونة . وينزوي في بيته انزواء الليث الجريح في عرينه ، يرسل نفحات من الشعر الى وطنه العزيز يبثه فيها كل حب واخلاص ، الى ان تنطفيء شعلته الوقادة ، وتنهار معها اقوى شخصية تحررية عرفها القرن التاسع عشر . ويذرف الادب ، وتذرف البطولة دمعا سخيا لن يكفكفه الا انتصار الثورة الكبرى .

**احمد الخطيب**